منسى

الموسيقى الشرقية







بحث طريف . لم يظهر مثله فى عالم الطباعة .
مبين و قضية الموسيقى الشرقية والمغنى القديم ،
الملك فيه الاسانيد والحجج الفنية والاجتماعية
عقلية متساندة صفاً صفاً ، ومقارنة كبلج الصبح
ما زعموا أنه جديد فى الموسيقى الشرقية وذاك
، لا تدع لمكابر مولجاً ، ولا لمبطل مذهباً .
نوادر وفكاهات عن المغنين الماضين
خرين .

« القوة الحقيقية لشعب ما
كامنة فى فطرته التى فطره الله عليها
وتقاليده الاجنبي ، أياً كان ، وكيفما
كان مفسدة لوطنيته ، مضيعة
لكرامته . »

(مدام دوستال)

تأليف

احمد ابو الخضر منسى

الطبعة الأولى عام ١٩٤٩

الثمن ٦

دار الطباعة المصرية الحديثة



الفصل الاول

التقليد ضعف ومهانة

« القوة الحقيقية لشعب ما ، كامنة فى فطرته التى فطره الله عليها ؛ وتقليد الاجنبى ، أيا كان ، وكيفما كان ، مَفْسدة لوطنيته ، مَضيعة لكرامته »
(مدام دوستال)

الموسيقى أشعة من فطرتك ، وفِلذة من طينتك ، وبضعة من عصبيتك ، وقَبَس من وطنيتك . قل لى ما موسيقاك ، أقل لك من أنت .

كل ما بين يدى شعب ، وكل ما يحرزه ، وكل ما يصدر عنه إنما هو قِوام قوميته ، وسمة جنسيته . وإنها لمزاياه التى تعرفه بها ، وإنها لطابعه الذى يمتاز به ويُفصَل

فالموسيقى كفن من فنوننا ، ولسان الشعر من شعرائنا ، وترجمان العواطف التى تنطلق من بين جوانحنا ، ومنطق الأخلاق التى نتسم بها وبها نسمو ، هى بحكم المنطق السليم ، وبما أسلفنا من القول ، قطعة ناطقة مبينة من فطرتنا ، ومن قوميتنا ، ومن كرامتنا . فانظر يا هذا ، بعد هذا ، أين تضع موسيقاك منك ومن الناس .

طلع علينا نفر من الضـــالين المستضعفين بشيء سموه ، فى موسيقـانا ، الجديد . . . ألا بُعدًا لهذا الجديد ! خلط مريب ، وتأليف غريب ، وطرب سقيم عليل . هى مزج كمزج عنـاصر (الصلاطه) التفِهة الغريبة ، إذا تنافرت أجزاؤها ، وتضادت بقولها . ضِغث [1] من الموسيقى الفرنجيه ، وضغث من الموسيقى العربية ، فلاهى ترضى أذنك ، ولا أذن الأوروبى تسمعها فترضى

يا قوم أفيقوا وارشـــدوا . ان الأوروبيين الذين تقلدون موسيقاهم ، وتطعمون بها موسيقانا المطربة الـكريمة ، إن أولئك الأوربيين جنس واحد ، تشابهوا دينا وحضارة ، ومذاهب عيش ولـكنهم مع هذا ، لا تجدون لهم موسيقى واحدة أو مختلطة . لكل شعب منهم موسيقاه الخاصة به ، تحمل طابعه الخاص ، فتعرفه بسماه : هناك الموسيقى الفرنسية ، والموسيقى الإيطالية ، والموسيقى الألمانية ، والموسيقى الانجليزية . كذلك اختلفوا فى فنونهم وآدابهم لكل طابع امتاز به واستقل . فكيف ، ياهؤلاء ، وأنتم لايجمعكم بالأوروبيين إلّ ولا قرابة ، ولا لغة ، ولا دين ، ولا مذهب حياة ، ولا طبائع ، تُضيعون موسيقاكم فى موسيقاهم ، وتضيعون فيهم ، فلا تعرفون ، ولا تمتازون ، وأنتم ، بموسيقاكم مع هذه الاعاون ، لو كنتم تعلمون .

---

(١) الضغث قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس . فى ذلك معنى الاختلاط ، ومنه اضغاث أحلام أى رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

كل اندماج وامتزاج مَضيعة للأصل . وكل ما أضفته إلى مضاف والحقته بملحق، وأنت تظن بذلك تقوية من ضعف ، فقد قضيت بتبعيته ، وآذنت بحقارته وضآلته . مَن ذا يريد لنفسه ولأمته التبعية والصَغار ، ويضرب عليها الذلة والمسكنة ، وهو يبغيها الكرامة وعزة الاستقلال ؟

ضِلة ما تظنون . ليس الاستقلال ياهؤلاء فى معانى السياسة فقطَ . إنما هو فى معانيه النفسية . فهى الجوهر ، وهى الأصل والتكوين : استقلال فى الخلق ، والتفكير والعمل ؛ استقلال تشعر به فى قرارة نفسك ، وتفهمه على صادق كنهه ؛ استقلال لا لبس فيه ولا أشكال ، يتجلى لك بآثاره وأفعاله من أقدام ، وثقة بالنفس ، واعتماد على النفس ، وكرامة تتسنم بها العلياء ، وجهاد وعزة قعساء ؛ استقلال قد أستُهترت [1] به وحلا مذاقه فى نفسك . أما إذا سرت فى ظل غيرك فى أمر من أمورك ، وجريت على خطوه ، وانقدت بزمامه ، وتضاءلت بازائه مستصغرا لنفسك ، مستهينا بقوتك ، فأنت قد باينت الاستقلال السياسى وفارقته ، ان كنت أحرزته ؛ بل ضيعت الاستقلال جميعاً بأشكاله وحالاته .

(١) أهتر واستهتر بالشيء بالبناء للمفعول ومنه مستهتر بفتح الفاء ، أولع بالشيء لايبالى بما قيل

هذا الخلط فى موسيقانا ، وأحاطتها بلمة من الأنغام الفرنجية وترقيعها بألحان دخيله أجنبية ، ضعة ومهانة. والذين يفعلون منا هذا هم أمة أبي لها دينها الذلة والمسكنة، والتقليد المخزى المهين. الاسلام يحث أهله على الجهاد والعزة ، وإباء الضيم . وإنْ نذكر لك إلا مثلا من كثير هذه الآية الكريمة : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ،قالوا : فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »

ما التقليد والفناء فى الغير، الا خزى وهوان، واقرار بالضعف والتبعية. وكيف، يا هؤلاء، تريدون لنا الضعف، ونحن نريد القوة، ونريد الاستقلال !

وضعت مدام دوستال الكاتبة الفرنسية النابغة ، فى القرن التاسع عشر ، كتابا عن « المانيا » سطرت فى ما سطرت فيه من ابحاث وآراء ، كلها ما أبعد غورها ؛ وما أجزل حكمتها ، ننقلها لهؤلاء المستضعفين بنصها وفصها . فان فيها لعبرة لمن عُبر فاعتبر . قالت :

« ان القوة الحقيقية لشعب ما ، كامنه فى فطرته التى فطره الله عليها ؛ وتقليد الأجنبي ، أيا كان ، وكيفما كان ، مَفْسدة لوطنيته مَضيعة لكرامته . »

الفصل الثانى

الموسيقى الشرقية ثروة زاخرة وجزالة لا تقبل مزاجا ولا تخليطا

وما لكم هديتم إلى رشاد ، وهذا التقليد فى موسيقانا ؟ إنما تلبسها بالموسيقى الفرنجية لاعتقادك فى هوانها وضعفها ، أو قلة طربها وحلاوتها، أو عجزها عن أداء ما تروم منها من ضروب الانغام وشتيت الألحان. إن كان هذا ظنك بها، فأنت لست شرقيا، ولست عربيا، ولست مصريا ؛ بل لست فرنجيا ، يا هذا . إنما أنت شيء مذبذب ، قد تعلقت فى الهواء بين السماء والأرض ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . إن أردت ترضينا ، فما نحن براضين ، وإن أردت الزُلفى إلى الفرنج ، والرضى منهم عنك فما هم براضين ، وما هم لك بمستمعين . انهم لا يستمعون إلا إلى موسيقاهم خالصة صريحة ؛ ثم أنت تخرج مع هذا ، بالزراية بنفسك ؛ وإن لم تغمرك غفلة ، علمتهم ينظرون إليك نظرة استخفاف وتبعية لهم ، واحتقار لك . زد على هذا أنك تبدو جاهلا بالفن ، غَبي عن علم موسيقاك .

أنت قد فتنتك موسيقى الفرنج ، واستهوت لبك ؛ فشأنك ؛ وإلى أهلها وما يلحنون منها، فاستمع واطرب ماشاء لك الطرب بها، ولكن لا تخلطها بموسيقانا ، فلا تربح تجارتك بهذا الخلط فتيلا .

أو تزعم أن الموسيقى المصرية الشرقية هزيلة ضعيفة ؟ لنفرض

هذا مجاراة لك، فما بالك لا تقويها وتنهض بها من ذات عناصرها؟ وما لك وهذا التطعيم لها بموسيقى غريبة عنها، منافرة لها ، لا يسمن ولا يغنى من جوع؟

على أنك يا سيدى القارىء ، ليتولاك العجب لهؤلاء الذين أشربوا فى قلوبهم موسيقى الفرنج ، كيف ذهبوا هذا المذهب ، ومن أين ظنوا أنهم قادرون أن يستدرجونا إلى أن نفرض الضعف فى موسيقانا المصرية الشرقية ، وهى جماع المحاسن والمفاتن ، ونخيل الجزالة والفخامة؟

موسيقى ، يالها موسيقى ! قوة وجزالة ، وثروة وطرب . وهى من السعة وتطاول المدى بحيث لا تجاريها الموسيقى الفرنجية ، ولا تلحق بها فى ميدان . فما بلغ ، إلى اليوم ، سلم الأنغام فى الموسيقى الفرنجية ، مجاراة سلم الأنغام فى الموسيقى العربية ، وتعدد الأصوات الموسيقية فيها، على بعد ما جهدوا فى صناعة الآلة الموسيقية الفرنجية المعروفة (بالبيانو) التى توردها المصانع الأوروبية إلى البـــلاد الشرقية وأبناء الموسيقى العربية ؛ وإعدادها لتأدية هذه الأنغام والألحـان العربية ذات الطول والحول، وما أوتيت من لطـائف الأصوات ، وخفى الأنغـام . ودقائق (العفقات) على اصطلاح موسيقينا العازفين على العود والكمان .

أقامت وزارة المعـارف المصرية منذ خمسة عشر عاما مؤتمرا للموسيقى الشرقيه ، ودعت إليه أقطاب علماء الموسيقى فى مشرقها ومغربها ، فوفد علينا منهم الألمانى والفرنسى والانجليزى والسورى

والعراق والمغربي ، ومن اليهم . وكان مما عهد إليهم بحثه ما إذا كانت الموسيقى الشرقية ، تنمو وترقى بتطعيمها بالموسيقى الفرنجية ، أو بمزجها بها . وهل الآلات الموسيقية الشرقية ، خير لها أن تبقى كما هى ، أو تحول إلى آلات موسيقية غربية ، أو تختلط بها .

وانعقد المؤتمر فى ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ ، ومكث إلى الخامس من أبريل من تلك السنة . وقد كنا فى عداد القائمين بالترجمة فى ذلك المؤتمر . فكان إجماع آراء أولئك الأفاضل من علماء الموسيقى جميعا ، والأوروبية منهم خاصة ، أن الموسيقى الشرقية لها طابعها الخاص ؛ وكذلك آلاتها ، فما من الخير فى شىء إدماجها فى الموسيقى الغربية ، إذ أنه لكل منهما مزاج وطابع خاص . كل له وجهة هو موليها . لا يأتلفان ولا يمتزجان ؛ وأنه من الاحتفاظ بما للموسيقى الشرقية من مزايا القوة والطرب والجمال ، صونها من كل مزج وخلط وادماج ، أنغاما وألحانا ، وآلات ، بمثلها فى الموسيقى الغربية .

ولعمرى . لقد كان عبد الوهاب زعيم هذا المزج والادماج ، ومن تلا تلوه ، واحتذى مثاله من الأذناب والمقلدين ، حاضرى المؤتمر يومئذ ، أحياء يسمعون ويبصرون أثناء انعقاده ، وعلموا الذى قد قاله هؤلاء العلماء الموسيقيون ، ولا سيما الأوروبيون منهم وقرروه . فما زادهم هذا الاضلالا وتماديا فى ماهم فيه ماضون . فهل هذا منهم جهل مركب ، أو استهانة ، أو إغراب وخلاف من نوع ما يقال : خالف تعرف ؟

الفصل الثالث

الجديد! الجديد! . . .

كذلك كان . ومكث هذا الفريق لا يحفلون ، وما برحوا فى ضلالهم وضَرَعهم يهيمون ، وركبوا رؤوسهم متمادين فى هذا التخليط الفرنجى العربى ، وعاثوا فى الموسيقى الشرقية فسادا بهذا الذى أشاعوه فى المذياع من أغان وألحان ما انزل الله بهامن سلطان، كلها من هذا الضرب الذى سموه بالجديد . شأنه عجيب مريب ، وأنغامه متشابهات مسمْات ،الطرب عنه ناءٍ بعيد ، والتلحين فيه هزيل سقيم . شيء على السطح والوجه ، طائف متقلقل ، لا عمق فيه ولا احسان ، أجدر أن يكون للعبث والهزل ، لا للجد والأطراب .

الجديد ! الجديد ! جنون وخبال ، وعجز وصغار . فمن أراد ظهورا فى الناس ، ولم يكن عَضّ على العلم بضرس قاطع ، وكان دعيّا مدعيا ،زعم انه قد جاءنا بجديد . وماجديدهم الامزق وترقيع. وما ينعق فينا ناعق بهذا الزعم إلا من سَفه نفسَه ، وهانت عليه همته . وحسر دون جزالة القَديم ، وكلّ عن بلوغ عظمته واتساع حدوده ، وجلالةفنونه — وما هذا القديم ، لو

علموا ، الا تراث أجيال ، ضم جيل إلى من قبله جهداً جديداً ، فاذا هو ركام بعضه فوق بعض من الفن العجيب المتين ، وبنيان مرصوص من الطرب والصنعة يروع الناظرين — قلنا ، إذ حسر هذا الدعى المدعى ، وكلّ دون جزاله القديم وعظمته ، راح يتكلف ويتنطع . وما هو إلا كما قال معاويه فى مِثله : (ما تزيد متزيد فى أمره الا لنقص يجده فى نفسه)

ان صاحب هذا القلم أوتى صوتا جميلا ، ولا فخر ؛ وغنى القديم كثيراً ، ولا يبرح يغنيه ، ولَقنَ الموسيقى سماعا وترقيما (بالنوته) ؛ وان هذا الذى يحدثكم ، ياهؤلاء المقلدون المستضعفون قد تخرج فى كلية الفرير ، ونشأ فى مدارسهم وترعرع ، ونبت عذاره ، وهو يملأ مسمعيه من موسيقاهم ، إذ لهم أناشيد دينية لا تخلو الكنيسة منها يوما ، إذ يقيمون الصلاة ، وانها لفى عقر المدرسة ، قد استوت فى ركن منها ؛ من حضر الصلاة من طلبة الكلية من النصارى ، ومن امتنع من غيرهم ، سمعها وتملأ منها ، ينشدون الأناشيد الدينية فى صلواتهم ، على وقع آلاتهم الموسيقية ويعرف هذا عندهم بالخوروس (CHOEUR) أى جوقة المنشدين

كنت أسمع هذه الموسيقى الفرنجية منذ كنت غلاما غريرا ، ابن الثامنة ، إلى أن تخرجت وغادرت الكلية ، بشهادتى وقد شارفت السابعة عشرة . ثم كنت أسمعها ، وأنا شاب بمجتمع أُشُدِّى ، فى دور التمثيل ، وأندية اللهو . واضرب لك مثلا من كثير ، بقهوة

البوسفور المعروفة بميدان باب الحديد بالقاهرة ، قبل الحرب الكبرى الأولى ، إذ كان أصحابها قد استحضروا جوقة موسيقية من القيان [١] النمسويات ، من الخود [٢] الحسان يعزفن ويغنين كل ليلة لمن حضر ولمن، شاء. فما اتكلم عن جهل بالموسيقى الفرنجية ولا بالشرقية ، ولا أنا من القابعين فى بعض قرى الريف من حراث الأرضين لم ابرح ولم اتثقف ، ولا أنا بمتعصب جموح ضلة وجهالة . فأنا ان قلت ، قلت عن خُبر وعيان ، وان نطقت فعن علم وبيان . وما يحدثك مثل خبير .

شر مستطير ، وبلاء وبيل . لقد كدنا ننسى أن لنا أصلا أثيلا وماضيا عريقا بطغيان هذا الجديد . فكأنما نحن نبات شيطانى ، أو خلق من الأنس طارىء ، قد نجم لساعته من غير خلق سابق له أو لاحق . شئنا نخرج للوجود فخرجنا ، وأقبلنا إلى الدنيا بِدعا من الناس كما شئنا .

الجديد ! الجديد ! لقد لذنا بأكناف هذا الجديد ، نستمسك بعراه، ونشد عليه بأيدٍ شديد . مستهترين به ، نولى وجوهنا شطره دون تدبر ولا وزن ، ولا سبر غور . فكل جديد أمسى فى عيوننا شيقا جميلا ، ولو خالف الذوق ، وما تألفه الأمزجه والطبائع ،

---

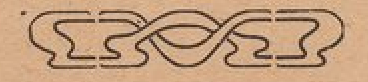
(١) جمع قينه بفتح القاف وهى الجارية المغنية . (٢) الخود بضم الخاء جمع خود بفتحها وهى الشابه الناعمة الخلق .

ولو طعن الطرب فى الصميم ، حتى لا يستقر فى نفوس ذوى غضاضة الغصن من النشء الحديث ، والذين تقدموا صفوفهم . وقادوهم بأزمتهم ، أن من علامات الرقى وسمات التمدين ، الأخذ بكل جديد . والويل لكل مستعصم بقديم . ولو أمتعك زخرفه ، وبهرك حسنه ، وسحرك جلاله . بل صاروا ، ويا عجبا ! يتظاهرون بحب الجديد ، ولو كرهوا ، لئلا ينعتوا بالتأخر ، ويوصموا بالانحطاط ! ..

جديدهم هذا ، فى موسيقانا سطحى ، لا عمق فيه ، ولا متانة ولا طرب . قريب التناول ، لا من حيث البلاغة والمتانة ، ولكن من حيث الركاكة والاستهانة . غريب على اسماعنا . خليط من موسيقى شرقية وأخرى غربية . متنافر لأنه يحتال على اطرابك بمختلفين ، ويروم التأثير فى نفسك وذوقك بمتعارضين ، لحنين ، هذا من نبع ، وهذا من نبع . اختلف ماؤهما ومسيلهما اختلافا شديدا . ألا تعجب لمختلفين يأتلفان ، ومتناكرين يتحابان ! . . .

ماجديدهم ، ياأخي ، الا انغام فرنجية ، فى الحان موسيقية ، هى منها ثلاثة ارباعها ، وانغام شرقية هى الربع فقط ! لعمرك ، ذا خلط غريب مريب . جديدهم هذا قد افسد روح الموسيقى الشرقية ، والأغانى العربية . فأضعف سلطانها على النفوس ، وتراكض اليها كل مسترخ فاتر الهمة ، يستقرب الموارد ، ويستدنى المطالب ، ويروم السعى من حيث يهون ، والكد من حيث

لا يكون . فهو كالتجديد في الأدب الذى نتعثر به هذه الأيام . فكلما ضاق ذرع كاتب ، ولوى به استرخاؤه ، وكلما الفى أن الأدب ، كما علمناه ، فى كل أمة تسامت الى العلياء بأسا وحضارة ، يتطلب ممن تورد موارده ، الغوص لاستخراج درر اللغة العربية وادمان الاطلاع على كتب اللغة ، وبسطة العلم باساليب البلاغة العربية ، واطالة الكد فى استيعاب علوم الأدب وفنونه ؛ ثم يكون مع هذا قد تعلم لغة من لغات الغرب ، غدا الى اساليب هذه اللغة الأجنبية التى تعلمها ، يخلطها باساليبنا العربية ، وأقبل يخاطبنا بمذق عجيب ، ويلطم وجوهنا به على أنه تجديد !



الفصل الرابع

عبد الوهاب وشيعته

ألا ويح عبد الوهاب ومن تلاتلوه من الاذناب ! لقدجنى على الموسيقى الشرقية ، والاغانى المصرية . انه زعيم هـذا الجديد ، والناعر بهذا الجديد . لقد كان يوم نجم شأنه ، وهو لايزال غلاما غض الغصن ، كان يومئذ مصريا شرقيا ، يغنيك قصائد شوقى الغزليات الملاح التى كان ينظمها له ، فيسمعك المطرب الحلو ؛ ثم ماعتم ان استكره ان يكون مصريا شرقيـا ، فراغ الى الاوروبيين يسرق الحانهم ، ويسطو على موسيقاهم ، وينسج على منوالهم . فاذا انت تسمع منه غـير الذى الفته اذنك ، وعجمه ذوقك ، واستطابه حسك : موسيقى قـد تنافرت اجزاؤها ، والحان قد تزايلت اوصالها .

على انها الحان لونها متشابه . صبغة لاتبديل فيها ولا تغيير . مجرى جامد ممل مسئم . ونسق مطرد على منوال لايحور ولايمور . وذا مايعبر عنه الفرنسيون بكلمة (MONOTONE) ، أى من نغم واحد لاتنويع فيه ولا اختلاف تتناسق اجزاؤه به واشكاله ؛ ومع هذا التشابه وهذه الملالة ، التى يحتال فيها على الاسماع — وكأنه يدرك ذلك ويحسه فى نفسه — بتغشيتها ، تمكينا للسامعين

من استساغتها ، بما يحشو أجزاء القطعة التي يلحنها ويشحنها شحنا بوصلات موسيقية طويلة مسترسلة، ولوازم ذات تعاريج والتفافات كثيرة على عزف عدة آلات فرنجية ؛ قلنا مع هذا التشابه وهذه الملاله في الحانه ، تتلقاك منها ومن صوته الذى كأنه خارج من جوف قبر ، كآبة تغمك وتقبض صدرك كأنما أُخذ بين فكَّى كلابتين . الرجل حزين باكٍ ، مع أنه يتمرغ فى الترف وكنوز المال التى لا تحصى . لا يفتأ يندب وينوح ، فكأنما إذ تسمعه ، تسمع أغانى مأتم ، ولكنه مأتم فرنجى عربى !

وإنه ليتولاك العجب أن وزارة الشئون الاجتماعية . حين أرادت تلحين قصيدة شوقى فى (السودان) لم تجد أمامها من الملحنين إلا السيد عبد الوهاب ! فخرجت القصيدة السعيدة بناظمها المنكوبة بملحنها ، خرجت بتلحينه نشيداً عجبا . تسمعه فتنشده ، ويعتريك ذهول ، وما يشبه الدوار برأسك . فلا تعى ولا تدرى ما تقول . هى تلك الكآبة و ذلك التشابه الممل غشى ذلك النشيد وزلزل به ، فولد على يديه ميتا وعاش ميتا . إلى أن بعث حيا بتلحين آخر وبصوت آخر هو صوت أم كلثوم .

وسموا هذا الجديد المقلوب الغريب . وما أبدع ما نعته به صاحب العزة الأستاذ الكبير خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم ، فى كلام له عن هذا التجديد ، فسماه « بالالحاد الفنى » قلنا سموا هذا الجديد بمدرسة ؛ ويعنون مذهبا ، هى مدرسة عبد الوهاب . والتحق بهذه

المدرسة اشائب [١] من ادعياء الموسيق ، ولمة من الواغلين المتطفلين على فن الغناء الشرقى . ومنهم نفر من الفتيان تلقوا قشورا من علم الموسيقى فى معهد الموسيقى الحكومى ،او فى مالا تدرى من معاهد اخرى، اواصابوا قدرا صالحا،وربما احرزوا الشهادات فى علم الموسيقى والغناء ولكنهم لم يجدوا وظيفه او عملا ، او مجالا يجولون فيه بعلمهم ، فراحوا يتطارحون على القيان المعروفات (بالعوالم) ، يعملون معهن (كصبيان) او (سَنِّيدة) ، فهذا قد التحق بواحدة ، وآخر باثنتين أو ثلاث، فلا يمضى عليهم قليل حتى تراهم فى احسن زينة ، وأعجب شارة ، عاليهم فاخر الرياش واغلى الثياب ، وجيوبهم بالدراهم عامرة ، متمرغين فى اللهو ، ناعمين باللذات فى صحبة هؤلاء العوالم ، عامرة نفوسهم بما اشتهوا مما ذكرنا لك ، الامن العلم المتين ، والامن الرجولة ، والكرامة .

وتجد الذين اخذوا قسطا موفورا او ضئيلا من علم الموسيق فى المعاهد أو ما ماثلها ، من النشء الجديد ، من الآلى لم يعيشوا فى القديم ، ولم يتذوقوا طربه ، ولم يدركوا غوره وامتداده وسلطانه، قد اقتحمهم الغرور ، فظنوا فى انفسهم العلم ، وخالوا انهم اوتوا مالم يأته الاوائل .كل اولئك على اصنافهم التى فصلناها لك ، هم الذين تتألف منهم هذه المدرسة عبد الوهابية؛ هم انصار هذا الجديد ، ولا سيما الأخيرين الذين اصابوا من علم الموسيق شيئا قل أو كثر ، فقد قلدوا عبد الوهاب فى غنائه ، ولحنوا مثله

(١) جمع أشابة وهى الاخلاط والجماعات

الحانا احتذوا فيها حـــذوه ، اقحموا فيها الانغام الفرنجيه وخلطوا فيها تخليطا شنيعا سموه بالجديد ! . . .

وان هم اسمعوك ، مع هذا ، غناء مصريا خالصا ، ولحنوا لك موسيقى عربيه شرقيه خالصة من هـذا الخلط الفرنجى الذميم ، لم تجد لغنائهم طعما ولا طربا ، ولا لتلحينهم ذلكم الاطراب الذى يستحوذ على سمعك ولبك ، ولا لتلحينهم تلكم الروعه التى اتسم بها القديم وسحر . وانما هو تلحين متشابه ، تافه ، الا ماقل منه وندر ، فنه ركيك وصنعته غثة مُزجاة .

ياهؤلاء ، انما انتم اخوتنا وابناء عمنا ، وعرب شرقيون مثلنا ، فاقصروا وانتهوا ، واقلعوا عن هـذا الغرور والضلال! مابالكم ، وانتم منا ونحن منكم ، قد ركبتم رؤوسكم ، وخبطتم العشواء ؟ فهلا علمتم ان كل امة هى بذات موسيقاها اولى ، وبالحانها واذواقها احق ؟ وان كل امة وماطبعت عليه ، ومار كز فى فطرتها؛ وما انتم براديها عن ذلك ، ولو بدا لكم انكم نجحتم ، فما نجاحكم الا سحابة صيف وتنقشع . تلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

انكم ، وما تجمعون من جموعكم لستم بمعجزين ، ولن تستطيعوا الاستمرار فى باطلكم . فان للباطل جولة ثم يضمحل. ومحال أن تؤلفوا بين موسيقى شرقية فخمة مطربة وبين موسيقى غربيه

تقصر عن مجاراتها فى الطرب وعمق الاثر، واتساع المجال، وقوة النفوذ، وإن كابرتم — ويا ليتكم تكابرون فى ما هو لكم ، لا فى ما هو لغيركم ، ولو بالباطل مظاهرة لتراثكم القديم ذى الجلال ومناصرة لقوميتكم وعصبيتكم فان ذلك اكرم لكم واعز — إن كابرتم، قلنا، فهلموا موسيقاكم الغربية بكل آلاتها ما جاد منها وعلت صناعته ، ودعوها تسمعنا ، اذ تعزفون عليها ، موشحا شرقيا عربيـا من بدائع موشحاتنا مثل (حير الافكار بدرى) أو (كللى ياسحب تيجان الربا) أو (ياغصن نقا) ؛ أو دورا من ادوارنا القديمه المعجزة ، فنا واطرابا ، مثل (مليكى انا عبدك) أو (متع حياتك بالاحباب) أو (تبهك على اليوم بسنين) أو (فؤادى أمره عجيب) ، يومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه . أجل . إنها لا تستطيع ، ولتعجزن عن اداء ذلك اداء دقيقا صحيحا ، اذ ليس سلم الانغام الفرنجيه بندٍ لسلم الانغام العربيه ، ولا سعة الانغام الشرقية تدانيها ضاءلة وقصور الانغام الفرنجيه. فاين الضيق من السعة . وما حملكم ، مع هذا ، على خلط ما لا يختلط ، وجمع ما لا يجتمع ؟

الا ان كل من يعمل على توهين ادبنـا ، وهلهلة اخلاقنا ، وإضعاف لغتنا ، وافساد موسيقانا ، انمـا يعمل مع المستعمرين ، انما هو ولى اعداء الاسلام ؛ انما ضلعه مع اعداء العروبه ؛ انه دسيسة من دسائس المستعمرين ، وآلة من آلاتهم ، كما فعل الانجليز

بجلنزة الهنود ، فجهلوا لغتهم وصرّفوهم بزمام التسخير كالانعام وكما فعل الفرنسيون بفرنسة المغرب والجزائر ، فجهلوا لغتهم العربية وضاعوا فى فرنسا حينا من الزمن ، اذ نهضوا اليوم مع الناهضين من شعوب العربية لاسترداد استقلالهم وعزتهم .

ألا فليعلم هؤلاء الذين تسموا باصحاب الجديد ، انه مادامت فينا نعرة القومية عالية ، ومادمنا مستمسكين بعزة الوطنية ، وبحب اللغة العربية ، وقوة الاخلاق الشرقية ، فالمستعمرون لايجدون الينا سبيلا . فمن ذا الذى اصارنا الى ان نسمع قطعا موسيقية مصريه ، هى فرنجيه صرفه ، توهن قوميتنا ، وتدمجنا فى الاجانب نسمعها كل يوم فى المذياع ؟ ومن ذا الذى وضع لنا هذه الالحان الفرنجيه الصرفه فى ثوب كلام عربى ، من أمثال (ياعاشقين الورد) نسمع كلمة (يافل يافل) تتكرر فيها كثيرا مصحوبة بآهات فرنجيه بحته او (يازهرتى اشوفك دبلانه) وليعذرنا القارىء الكريم اذا كنت جاهـــلا لامثال هذه الالحان . فانى اضرب بينها وبين سمعى سدا منيعا . فلا اذكر منها الا هذه العبارات التى اوردتها لك من هذا الذى لحنهما ، وماشابههما ، ليفسد اذواقنا ، ويجعل النشء الجديد من ابنائنا ، لايسمع ولاينشأ الا على مثل هذا الفساد والشر المستطير ، فتضعف اذواقه وتميت فيه عزته ووطنيته ، وتدمجه فى المستعمرين والاجانب ؟ . . .

الا أن هذا لبلاء دائم . إن هذا الجديد يجب محقه وابادته واستئصال شأفته ، الا أن يكون جديدا من نبع القديم، موصولا به بسبب . لعمرى لقد كاد قديمنا الفحل المطرب يغيب عن أسماعنا ، ويهجر هجرا ، رهينة لحد عميق . ذلك القديم الحاشد بالطرب ، طرب جــل ولطف وهز الافئدة هزا. ولولا القليل الضئيل مما نسمعه من المغنين القدامى الفحول أمثال صالح عبدالحى وابراهيم وعزيز عثمان، ومحمد البحر والخولى والشيخ زكريا، لحسبت القديم البديع قد طمس وغيب فى الرمس .



الفصل الخامس

الفنان يعمل لفنه لا للمال

لا نعنى بالفنان كل من اتخذ الفن حرفة ومرتزقا، أو من أجاد فيه وبرع ، وإنما نعنى به الصادق المصطفى ، ذلك الذى أخلص للفن ، وجعله همه وشغله . هو هدفه وهو غايته وهو حياته . هو ذلك الذى جرى الفن فى بدنه وتغلغل ، فاستحال فيه دما وأعصابا وعظاما

ذلك الفنان العبقرى الملهم ، ان افقره الفن علقه ،وان أشقاه لهج به ، وان ابتلاه تبعه ولزمه ، وهمهمت بذكره شفتاه . يلقى ما يلقى فى سبيل فنه من حسد الحاسدين ، وكيد الكائدين وبهتان المتخرصين ، وعداوة الشانئين ، وظلم المتجنين ، فلا يخذله ذلك ولا يقعد به ،ولا يحمله على هجر فنه ،أو الفتور عن التفانى فى حبه والابداع فيه ما شاء له الابداع أن يبدع .

الفنان الحقيق لا يأبه للمال ، ولا يحفل بالغنى ، ولا يكترث لاكتناز الذهب والفضه ؛ بل لتجدنه يبذل المال بذلا فى سبيله ويضحى من أجله بما ملكت يمينه ، إذا حق عليه ذلك ، ورأى لزاما عليه اعلاء كلمة الفن على الدنيا وما فيها .

الفنان المصطفى عُلوى سماوى ، لا سُفلى أرضى . النفسيات فى

ميزانه أرجح كفة من المساديات . هو للفن وفى الفن . وان أقبل عليه دهره ، فأُوتى مالا ، وأصاب ثراء ، لم يبطر ، ولم يفتر عن فنه همة ودأبا . ثم تراه بماله ندِىّ الكف مبسوط الراحتين ، يجود به على ذوى الحاجات ، لا ضنينا ولا مقترا . ذلك أن الفن الصريح المصفى يطير بالنفس إلى عِلّيين ، ويسمو بها سمواً كبيراً .

روى الراوون أن عبده الحمولى ، وكان مطرب الخديو اسماعيل ونديمه ، أثيراً عنده مكرما ، أطربه ليلة فى مهرجان افتتاح قناة السويس وكان حضرها الوزراء وجبهة رجال الدولة ، حتى أخرجه عن طوره فلم يتمالك الخديو اسماعيل ، وهو فى نشوة طربه ، ان قال لعبده يا عبده ! تمنَّ على ما شئت . فتمنى عبده ، ولكنه تمنى عجبا ، تمنى ما لم يكن فى حسبان أحد قال : يا مولاى مر بالميرالاى محمود بك طاهر ، وكان غضب عليه الخديو اسماعيل . لوشاية به ، فنفاه إلى مصوع ، بأن يعود إلى وطنه وعياله . فتعجب الخديو اسماعيل وبُهت الذين حضروا المجلس . وانما هُمُ الناس المال وزينة الحياة الدنيا . فما كانوا يتوقعون أن يطلب عبده الحمولى من مليكه غير المال والعقار . انه لو شاء فى هذه اللحظة التى حانت ، والفرصة التى واتت ، لجرى المال بين يديه نهرا دافقا ، ولكن عبده كان فناناً عبقرياً ، كان فناناً علوياً ، له نفس قد صفت وتسامت فوق هذه النفوس البشريه . إنه يطلب شيئاً خالداً كريماً ، انه يطلب

مافيه غذاء نفسه الصافية ، وفنه الذى بلغ السماك الأعلى . وماحاجته إلى مال يذهب مع الريح بذهاب صاحبه . وما كان ذا أَثَرة يُضْفى نفسه بالخير دون الناس . فلم يكن من الخديو ، وقد الح عبده فى اقناعه ببراءة محمود بك طاهر ، إلا أن أجاب طلبه ، ورد الميرالاى إلى وطنه وعياله .

وقد حدثنى الأستاذ احمد سبيع العواد القديم المعروف ، عن طيب الذكر المبدع على قانونه ، محمد العقاد ، وكان من خاصة عبده الحمولى ورجال تخته ، قال : روى العقاد ، انه ، بينما كان عبده يوما ينتظر فى مقصف محطة حلوان ريثما يلتئم عقد رجاله ، ليمضى إلى حفلة عرس فى تلك الضاحية ، ليهز أوتار أنفسها بسحر فنه المعجز إذ دلف إليه رجل حسن البزة ، جميل السربال ، فاكب على يد عبده يروم تقبيلها فى هيئة الأكبار والتوقير الشديد ، فقبض عبده يده مسرعا ، حياء وتواضعا ، ثم تنحى الرجل شيئاً قليلا اجلالا واستحياء . فتعجب عبده ، وظن أن بهذا الرجل خصاصة ، وانه وافد إحسان ، يلجمه الخجل وتصده نخوة نفسه عن الطلب . فصير عبده ايده فى جيبه ، وكان كل ما فيه ساعتئذ خمسة جنيهات — وتلكم الخمسة ، مع ذلك ، ياسيدى القارىء الكريم ، بمنزلة خمسة وعشرين جنيها من جنيهات أيامنا هذه المنحوسة ! — فدفعها إليه خفية . ولكن الرجل رفضها قائلا : ما أنا يا سيدى بسائل ، ولا أتيتك مستجديا . إن انا إلا تاجر كبير فى

الاسكندرية ، ولكن حلت بى أزمة ، وعلى بروتستو بمبلغ جسيم لا محيص من قضائه غدا ، والا ضرب على الافلاس والدمار . فما شخصت إليك إلا مؤملا فضل مسعاك لدى أصحاب هذا البروتستو بما لك من جاه وكرامة ، أن يؤجلونى الى يومين ، أكون قد دبرت المال فيهما . قال : فبش له عبده وهش ، وعزم عليه أن يجالسه ودعا له بشراب وأكرمه . ولم يلبث أن التف بعبده رجال تخته ؛ فعزم على التاجر أن يصحبه إلى حيث يشركه فى نعيم طربه . فلزمه الرجل إلى أن بلغت الحفلة غايتها . فنادى عبده صاحب الفراشه ، وأمره أن ينقل هذا النضد ، وما حوى هذا السرادق الفخم من زخرف وآنيه وقدور ، إلى دار ذلك التاجر فى ثغر الاسكندرية ليلة الغد . ثم عزم على التاجر أن ينزل فى قراه وينعم بنزُلُه فى تلك الليلة . ولما شق الصبح عنه سربال الليل ، سعى عبده سعيه لدى أصحاب البروتستو ، فلبوا الطلب وأجلوا إلى يومين . ثم شخص الفنان العبقرى عبده مع التاجر إلى داره فى الاسكندرية ، حيث أخذ السرادق زينته ونصب المقصف الجامع لما لذ وطاب من طعام وشراب . ودعا عبده من شاء من أمراء ، ووزراء ، وأعيان الاسكندرية والقاهرة إلى حفلته تلك التى تبرع للتاجر بأن يغنى فيها مع رجال تخته تلك الليلة .

وما أن انعقد الجمع ، وسمعوا السحر الحلال ، وطعموا

وشربوا ، حتى طاف بهم عبده ، يأخذ من هذا العشرين ، ومن ثان الخمسين ، ومن ثالث المائة ، حتى إذا صرها بيمينه الوفا من الجنيهات ، سلمها للتاجر ، فقضى ديونه ، ودفع عن تجارته وبيته ما كان منى لهما من إفلاس ودمار .

وقد أعجبتنا كلمة نمقها الأديب المفضال الأستاذ قسطندى رزق تحت عنوان (عبده الحمولى . هل يبعث من قبره) نشرتها له الأهرام الغراء فى التاسع من أغسطس عام ١٩٤٧ جاء فيها قوله :

« كان عبده يخدم الفن للفن فى حياته التى لم يسأل فيها فوق الكفاف ولم يطلب منها أكثر من البلاغ بالرغم من اغداق الخديو اسماعيل عليه من لامع النضار مالا يأخذه الحصر على خلاف بعض المجددين الذين موهوا على الأسماع بالسخيف من التلاحين المستمدة من بيئة غير بيئتنا فهدمت أركان فننا الشرقى وشوهت محاسنه ولم يرموا فى أغانيهم إلى المثل العليا بل كان هدفهم تجاريا وماديا غير مراعين أن العرب قوم إذا صيح بهم انتبهوا . وكثيرا ما أنذرت فى كتابى « الموسيقى الشرقية » ، وعلى صفحات الجرائد ، هؤلاء المجددين بما سيلاقون من سوء المنقلب

ومما يذكر هنا انى سمعت عبده يغنى مذهبا فذهب بعقول سامعيه وصعد بهم إلى المراتب العلوية وقد تجلى عندليبنا الذى لم تفتح العين على مثله فوق التخت ، ولما نزل عليه الوحى حول وجهه صوب

السماء وكأنى به يخاطب ربه باسطا يديه لعطائه وصـــاح منشدا « يا سيدى ما تنعم أنا عبدك راجى عفوك » والغرض من إيراد ذلك هو أن الفن روح لامادة وهو ساكن فى الروح وغير منفصل عنها ومصدره السماء . » .

وكامل الخلعى الذى جن من علم الموسيقى وفن الموسيقى ، إذ غاص فى بحورهما ، وخاض فى لججهما إلى الأغوار ، فأتى فيهما بما اتى من بديع التأليف الموسيقى ، وعجيب التلحين ؛ ولقى ما لقى من الضر والبؤس ، وعضه الفقر المدقع ، فامسى هائما على وجهه ، طريد الفاقة والمخمصة . حتى إذا رأى أن قومـــه غمطوا حقه ، وجحدوا فضله ، فتغافلوا عن حاله وسوء مآله ، وأخلوه لما هو فيه من كبَدَ ولأواء ، راح إلى صندوق طلاء الأحذية ، فأعتضده وجال فى شوارع العاصمة ومقاهيها يمسح أحذية الناس ويلمعها . وكان بعض عارفى فضله وعلمه إذا طـــلا له حذاءه ، ناوله على المسحة ربع ريال أو نصف ريال ، فيمتنع ويشمخ بأنفه عزة وكرامة ، ولا يأخذ إلا نصف القرش فقط !

وروى لنا الرواة الذين عايشوه وعاشروه انه ، أيام كلب عليه الزمان ، وعضه البؤس بنابه ، وضاق ذرعا بنضوب جيبه حتى من القروش ، هام على وجهه يعتسف الطرق إلى أن انتهى به المطاف إلى الشيخ سلامه حجازى ، فشكا له فاقته ، وبثه حاجته ، فناوله جنيها ،

فغدا به كامل متهللا. فلقى صديقا له فترافقا فى الطريق . وعرض لهم بائع عرقسوس . فناداه الخلعى واستسقاه قدحين له ولصاحبه، ثم أخرج الجنيه من جيبه ؛ فدفعه للعرقسوسى ، ليأخذ القرش ويرجع له الباقى ؛ فدهش البائع. وهذا مادار بينهما :

قال العرقسوسى : ايه ده ياعم ؟

– جنيه

– جنيه !

– أيوى

– جنيه ! جنيه ! . . بتقول ايه يا بيه ؟

– باقولك جنيه .

وكاد العرقسوسى يجن ، وظن فى كامل الجنون ؛ وهو يسخر به فصاح فى الخلعى صيحة الألم والعجب قائلا :

– ياعم جنيه . . . هو أنا شفت جنيه طول عمرى ! .

– بتقول إيه؟

– باقولك ، ماشفتش الجنيه طول عمرى .

فما كان من كامل الفنان العبقرى ، والموسيقار البائس الا أن قال وقد اخذته رقة على الرجل :

– ماشفتش جنيه طول عمرك ! . . . طيب . . خده . . هو لك ياعم حلال بلال .

وتركه كامل وانصرف مهرولا مع صاحبه ، والعرقسوسى يصيح كالمجنون :

ياسيدنا ! ... يا افندى ! .. يابيه ! ... تعالى خد الجنيه بتاعك وادينى قرشى ! ...

ولكن الرجل كان ينادى غير سميع ولا شهيد . لقد كان كامل قد اختفى عن عينه ، متخليا لهذا العرقسوسى عن الجنيه ، الذى انما احرزه بشق النفس ، ومعاناة الجوع والبؤس ، ذلك أنه أكبر أن يكون هذا الرجل اعلى منه درجة فى الفقر ، وأن يكون لم ير جنيها فى حياته !

وحدثنى الأستاذ احمد سبيع عن الموسيقار والملحن العبقرى المأسوف عليه داود حسنى ، انه عاينه مرة ووجهه إلى جدار فى شارع محمد على ، وظهره إلى المارة ، عاكفا على نفسه ، كأنما هو نزيل قفر خلا من كل ذى حياة . فدلف إليه متعجبا حتى داناه فرصد له من خلفه ، فسمعه يلحن (دوراً) من أدواره البديعة المعجزة ، حتى إذ زجل بقطعة من تلحينه ، فرج شفتيه عن ضرطة عبر بها عن عدم رضاه بصنعتها وقلة تطربه بها ، فضحك الأستاذ سبيع بما رأى وسمع . وأشعر الفنان داود بوجوده ، وتصاحكا وتضاحكا بما كان منه .

فانظر يا أخى صنع الفن العظيم بأهله ، كيف يسلبهم عقولهم

ويملك عليهم أقطار تفكيرهم ، ويسمو بنفوسهم حتى ليناطحوا السماك الأعلى ؛ مع ما يبتليهم من جهد وبؤس، إذ كاد داود يكون فقيراً . أن أمثال هؤلاء الفنانين انما عاشوا للفن ، وماتوا فى الفن فهم خالدون ما خلد الفن فى الناس .

كذلك كنت ترى رجال الموسيقى العربية القديمة ، والغناء الشرقى البديع . أما موسيقيو هذه الأيام النكدة ، وأدعياء التجديد فهم صنف غريب ، وفئة عبادتها المال ، وعكوفها على اكتناز المال . فنهم خداع وتزييف . يجرّون حبل الضلالة . ويعتسفون طريق المتاهه . أهل تجارة . يبغون عرض الحياة الدنيا ـ يريدون اصـــلاح دنياهم بمحق فنهم . همهم أن يكترشوا ويتمرغوا فى الترف والمناعم . ولسوف تُسلمهم بطنتهم إلى التلف ، إذ آخرتهم إلى خمول وفناء لو كانوا يعلمون !

ــ وياليتهم ، مع هذا الثراء الفاحش ، رحماء أسخياء ؛ ولكنهم خلوا إلى أموالهم يكنزونها ، وكلما ربت فى خزائنهم طربوا لها . فما تجدهم يبض حجرهم ، ولا تندى يدهم بدانق لمعوز ، ولا ذى حاجة ولا ذى علم وفن ، ولا لمشروع صناعى وطنى ، ولا لعمل خيرى .

قيل أن مصلحة الضرائب طالبت عبد الوهاب بألوف من الجنيهات ضريبة على أرباح كنوزه ، فقاضاها محتجا بغلو الضريبة فحكمت له المحكمة بتخفيض الضريبة ، فاذا هى بعد التخفيض والعهدة على الراوية تستقطب ألف جنيه [illegible]

ومثله أم كلثوم فى فن الحرص على المال واكتنازه ، مع امساك شديد ، وقبض اليدين دون من يستحقون الإحسان والمعونه ، ولو من أهل الفن ، ورجال الموسيقى ممن دابرهم الحظ وانقلبوا إلى بؤس وضر شديد .

والذى سمعناه أن أصحاب الحفلات التى تغنى فيها أم كلثوم ، ينقدونها فى الليلة التى تغنى فيها ساعتين أو ثلاثا ، خمسين وثلثمائة جنيه . وقيل لنا انه لو أحد الأهالى طلبها للغناء فى عرس له ، فعرض عليها ثلثمائة جنيه ، تعسرت وابت !

أولئك الذين حدثناك عنهم من القدامى ، هم أصحاب الفن الحقيقى المتسامى ، والأغانى الشرقية القديمة الفحلة الساحرة ؛ وهؤلاء هم أصحاب هذا الجديد ، وأدعياء التجديد (مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا افلا تتذكرون .)

الفصل السادس

الطرب القديم

كان للطرب القديم بهجته ورواؤه . وقد مدّ رواقه ونصب سرادقاته في انحاء هذا البلد الطيب ، وعطر أرجاءه بأرجه ، وارقص الوادى برنات أوتاره وطربه . ولا غرو فهو من صبغة ناسه ، وناسه من صبغته : كلاهما في طبعه المرح ، ولطف الذوق والطرب .

عم الوادى ذلكم الطرب القديم ، وأظل الناس بأفياء أغصانه يغبقون من كاسات تطريبه . بعد الصبوح . فكنت تجد الطرب قد نثرت حبات عقوده في طرقات القاهرة وأمهات المدائن المصرية . اينما سرت تلقاك زجله وترقيصه : الافراح والسوامر في كل حى ، وفى دجى كل ليل . يطرب فيها فحل من فحول الغناء وغريد من بلابل الموسيقى في ذلك العهد : فذا سرادق عرس ، وذاك حفل موسم أو عيد ؛ وثم حانة لهو . تسمع هنا عبد الحى حلمى ، وهناك يوسف المنيلاوى ، وفى حى سالم العجوز ، وفى رابع السبع ، وفى آخر عبد البارى . وطُف ما شئت ، واذكر من شئت من أعلام الطرب القديم ، وفحول فنه فأنت في غمرة من هذا الطرب القديم ونشوة قد ملأت جوانحك .

واذكر إلى هذا ، حانات وملاهى وجه البركة ، وروض الفرج وقهوة البوسفور ، وحديقة الأزبكية . واذكر حانات اللهو

خصوصا فى وجه البركه : الهمبرا، ونزهة النفوس، والف ليلة، وكانت فى ميدان العتبة الخضراء، ومكانها اليوم سينما رمسيس؛ كنت تسمع فيهن مشهورات القيان فى الفن والطـــرب القديم كاللو انديه، والحاجه السويسيه، وبهيه، وتوحيده . كان الطرب يطلبك وان لم تطلبه ، ويسعى اليك وان لم تسعَ اليه بقدم .

أما اليوم فقد اذهب هـذا المذياع بهجـة ذلك، وسلبنا متعه ولذاته . تجـــد المغنين محصورين فى حجرة الاذاعة بين جدرانها الاربعه، مرتهنين بميعاد مضروب، ونصب عيونهم علامات منذرات محرجات: هذا نصف ساعه وذاك عشر دقائق، كأنه فى حصة مدرسه!... فكيف، ليت شعرى يستكمل هذا الذى يغنيك، طربه، ثم اطرابك؟ زد على هذا، وانه للطامة الكبرى، ان هؤلاء المغنين والموسيقيين الذين تسمعهم فى الاذاعه، كلهم الا قليلا ، كالكحل فى العين ، لايسمعونك الا هذا الجديد المقلوب المتنافر بخلطه بالانغام الفرنجيه أو بجديد لم يخلط، ولـكنه عار من الجمال، محروم من الصنعة البارعه غشيته قترة من سآمة، وتشابه ايقاع . هذا ياسيدى، هو ما يسمى طرب المذياع، طرب خلا من الشعور والالهام، الا قليلا . طرب آلى، أو كما يقولون (ميكانيكى)! وياويح هذه المدنية الاوروبية ! كلما امعنا فيها ، زادتنا نأيا عن الفطرة السليمه ، ومروقا من تقاليدنا الجميلة، وارهاقا لانفسنا واعصابنا فيه العذاب والبلاء لو كانوا يعلمون !

وهو كذلك ذو اثر بليغ، وساطان مبين. فلست تملك قيادنفسك

ولا لك الى ضبط اعصابك، وتسكين ثائر عواطفك من سبيل. وكأنما هو مولج اصابعه فى سويداء قلبك، وأغوار نفسك، يعبث بها، ويبسطها ويطويها كيف يشاء.

وهو صنعة رائعة وفن متين، فالموشح والدور القديم ثروة من عجيب الصنعه وافانين التلحين، كجلمود صخر رصفا وحسن صياغة، لا يغنيهما الا الشيخ من شيوخ المغنى، ولا يدرك كنوز بدائعهما الا قطب من اقطاب الموسيق، ولا يجد جلدا وسلطانا على انشادهما والاطراب بهما، والجولان فى اقطارهما الا فارس مغوار من فرسان ذلك الميدان.

وانه ليبلغ هذا القديم من علو وسحر الطرب حتى ليغنيك عن الصوت الجميل. لم يكن المطرب الكبير محمد عثمان جميل الصوت جمال عبده الحمولى والمظ فى ذلك العهد الزاهر بهم، ولكنه كان يأخذ بناصيتك ويسحرك، على ماحدثنا الشيوخ من سلفنا الذين حضروه، فتصيح: واطربا! وواعجبا! ذلك ان ادواره التى كان يلحنها ويغنيها، عظمت بالفن، وغنيت بما يكسوها من بديع الصنعه. وبهرت بما يحشد فيها من روائع الطرب. وكل القديم ذلك الشأن، وعلى هذا المنوال.

ولقد سمعت ليلة عرس، الاستاذ الفنان الكبير داود حسنى على تخته، هو المغنى وهو الضارب على العود. وكان داود يكاد يعد من ذوى الاصوات غير المليحه. وأقسم ألية شريف صادق، ان صوته

ليلتئذ عد من أجمل الاصوات . وكان فنه الرائع فى صوته ومز هره وطرب إنشاده، يقع على الآذان كالسحر الحلال. أطرب وأعجب حتى لتمنى الناس الليل يطول، وأن الغد لا يطلع عليهم كما قال الشاعر العربي

فليت غداً يوم سواه وما بقى   من الدهر ليل يحبس الناس سرمدا

استمع ياسيدى القارىء المنصف إلى موشح من ذلك القديم -

وقَلّ ان تسمع فى هذه الأيام المنحوسه عجيب فنه، وبلابل طربه - ؛ أو دوراً مما كان يصدح به عبده الحمولى، أو محمد عثمان ، أو يوسف المنيلاوى أو عبد الحى حلمى أو سالم العجوز، ومن اليهم من شيوخ الغناء القديم، وفرسان الموسيقى الشرقيه الكريمة غير الهجينة ؛ ثم استمع إلى قطعة من صنع هذا الجديد الممسوخ، وحدثنى بلسان وجدانك، وسليقة مزاجك وطبعك، أين كان طربك، وأين كان ميلك مع الأنغام كل مذهب، وأين كنت سكرانا، وماشربت خمرا؟

اسمع يا سيدى القارىء المصرى الشرقى ، السليم الفطرة ، إن كنت قد غمرك هذا الجديد، لسوء الحظ، ولم تستمتع بسماع القديم، دور (فؤادى أمره عجيب) من نغمة الرصد مثلا، أو (بالعشق قلبى هنى) من نغمة جركة تلحين الموسيقار داود حسنى، أو (ياقمر دارى العيون) من نغمة نهاوند تلحين الموسيقار ابراهيم القبانى؛ اسمع هذه الأدوار ، ومانضرب إلا مثلا قليلا من كثير يملك أفئدة السامعين؛ اسمعها من اسطوانة إذا وفقت ، أو اسمعها من أحد رجال الفن القديم موسيقيين أو مطربين أو (مذهبجية) مرجوا متفضلا، لكى

تنصرنا على هؤلاء الزاعمين التجديد، أو تنجو بنفسك وسمعك من شرهم وطغيانهم، فإنك تسمع الفن فى معجز بدائه، والتلحين فى غرر أفانينه، والطرب فى ذروة تطريبه، والموسيق الشرقية فى اسمى ما تسموا اليه، وافسح ما تجول فيه وتصول من المرقص المشجي. وليس السمع كالعيان، ولا الخُبر كالخبَر.

بل اسمع أم كلثوم حين تنشدك مثلا (وحقك أنت المنى والطلب) وهى قصيدة من الأدب العربى العالى، كما كان ينشدها الشيخ أبو العلاء أو (اراك عصى الدمع) وهى فيهما، حين تنشدهما، مغنية من فرسان المغنى الشرقى الصريح، تملأك طربا واعجابا، واسمعها هى نفسها، حين تنشدك أى لحن من هذا الجديد، ولا سيما الذى أدخلت عليه الأنغام الفرنجية، مما يؤلفه من أجلها الأستاذ القصبجى، ومن جرى مجراه، وقل لى بحقك، أيهما انت به مترنح طروب، واين الكفة من الكفتين رجحت على الأخرى رجحانا كبيراً، فأنت اسماعها منقاد طروب؟

بل اسمع عبد الوهاب نفسه الذى جنى ما جنى على الموسيقى الشرقية، والأغانى العربية بجديده هذا الممسوخ الهجين، أسمعه حين كان فى حدثان أمره ينشدك قصيدة شوقى العظيم (تعالى نفن نفسينا غراما) فيلعب بلبك، ويملأ نفسك طربا، واسمعه اليوم فى سخف جديده، فتعلم أنه جنى على نفسه قبل أن يجنى على موسيقانا

وأغانينا ، فظلم نفسه بهذا الجديد ، وسقط من علو الى حضيض . ويعدو على كل أمرىء ما يأتمر .

على أن الحق هو الغالب، وهو الدائم الباقى ،وما الباطل الاجولة ويضمحل . لقد عاد الحنين إلى القديم ، وطرب القديم ، واخذ الناس يفيقون من هذا الذى غشيهم ، ويشنأون هذه الفوضى الموسيقية الغنائية . واليك ما نقشه قلم الأديب الفاضل السيد حسنى كنعان من مدينة دمشق ، ونشر فى مجلة الرسالة لصاحبها الاديب الكبير الاستاذ الزيات فى العدد الصادر فى ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٧ تحت عنوان (الموسيقى القديمة والحديثة) قال :

« لم يكد يطلع القراء على المقال البليغ الذى دبجته يراعة الكاتب المفن الاستاذ عبد المنعم خلاف حول المفاضلة ما بين الموسيقى القديمة والحديثة ، وما تركته فى نفسه تلك القصيدة الفذة « سلوا قلبي غداة سلا وتابا » للآنسه أم كلثوم من الاثر البالغ حتى تناقلت المقال الايدى وتعاورته ، وكان له الوقع الحسن لدى المنصرفين إلى هذه الصناعة من أعضاء الاندية الموسيقية فى الشام، إذ عرفوا أن فى مصر نقمة على الموسيقى الحديثة الرخيصه المبتذلة تحكى النقمة عليها فى سائر أقطار العروبة، وعرفوا أن فى مصر حنينا إلى الموسيقى القديمة لما فيها من روح الطرب الصادقة والفن العربى السامى الذى يلذ المسامع ويستهوى الافئدة، ويأخذ بمجامع القلوب »

ثم قال :

« إن البلاد العربية التي تصدر في موسيقاها عن الديار المصرية ليعز عليها ويسوؤها أن يتردى الفن في مصر إلى هذا الدرك الذي يعلن عن نفسه بمظاهر التماوت والتخنث والضعف، وتود من صميم أفئدتها أن يلهم القائمون على هذا الفن في مصر، الرجوع به إلى القديم مع اقتباس النافع الجميل من الحديث، ذلك لان حديثنا اليوم قد غمر نفوسنا وكاد ينسينا قديمنا، فإذا لم توفق مصر، وهي زعيمة العروبة اليوم إلى هذا الذي نرجوه، فلن ترى في الجيل الجديد إلا مضيعا للفن وأهله وانا لنشاهد اليوم بوادر هذا التضييع منذ بدأنا نكاف آذاننا أن تستسيغ الانغام الشعبية على ما بها من تبذل في المعاني وحطة في الفن هربا بأنفسنا عن سماع المقطعات الحديثة الجافة .. »

وهنا يجدر بنا أن نجعل مسك الختام لهذا الفصل التنويه بفضل الأستاذ الكبير الدكتور محمود أحمد الحفني ، في ما أذاعه في المذياع من غرر أحاديثه عن الموسيقى والطرب القديم ، وما لها من اعجاز وسمو منزله . فقد أفاد وأبدع .

الفصل السابع

الفن والطرب فى الأغانى القديمة

الموشحات والادوار والقصائد والطقاطيق والبشارف والسماعيات

والآن نفصل لك حبات نظم هذا القديم البديع، ومافى عقده الفريد من درر وجواهر . فقد نضد الغناء القديم أجمل تنضيد، ونسق أبدع تنسيق .

كان للغناء القديم، بحسب وضع شيوخه، واصطلاح أرباب فنونه طور معلوم ونهج مرسوم يمثله لك (التخت) فى ليالى الاعراس والتفريج ؛ يغنى المغنى فيها على تخته ثلاث (وصلات) . أى أن الليالى المطربة قد شطرت شطورا ثلاثة، بينهما فَتْرة أو استراحة، يطلقون على كل شطر اسم (وصله)

وكل وصلة يعمها صبغ نغمة واحدة أو صوت من أصوات الغناء؛ كأن يغنى المغنى فى الوصله الأولى من نغمة حجاز ، ويغنى فى الثانية من نغمة سيكا مثلا . ويكون كل ما تعزف به المعازف وتشدو به المغانى لا يخرج عن هذه النغمة مدة أداء الوصله . وكل وصله تنتظم على ما سنفصله لك من النظم والتنسيق :

استهلال الوصله يكون بتقسيم صاحب العود (لياليه) من الصوت المراد اصطباغ الوصلة به ، فإذا أطرب ولعب بالألباب

بزهره تلته آلات الطرب مجتمعة متآلفه، وهى العود، والقانون والكمان، والناى والدف، تعزف ما يسمى بالبشرف، وهى قطعة موسيقية حافلة بالفن والطرب، غير مصحوبة بغناء، تمهد الآذان لاستقبال النغمة التى تكون عليها الوصلة، (وتسلطن) هذه النغمة على العازفين بهذه الآلات، حين يعزف كل منهم على آلته.

فإذا بلغ البشرف تمامه، أخذ صاحب الكمان يطربك بشجى عزفه، ثم يأتى دور الناياتى فيسمعك مثل سجع الحمام. وهنا يأتى دور صاحب القانون فينفرد مع المغنى حين يغنى لياليه ومواله، ويشرع يشرح صدرك بتقاسيمه. ويروعك بلعب أنامله على أوتاره

وهنا تأتى نوبة الغناء. فتستهل بالموشح من نفس النغمة طبعا، تُرَجِّعه أصوات المغنى مع رجال فرقته جميعاً، مضبوطا على نقرات الدف من صاحب الدف. ويُعد الدفاف أساس التخت، موسيقاه ومغناه، ورباط نظمه.

فاذا الموشح بلغ نهايته، فاطربك وارقصك، كانت النغمة قد (تسلطنت) على نفس المغنى وأذنه، فصدح بلياليه، فمواله فالدور. ويتألف الدور من قطعتين: الأولى المذهب، والأخرى الدور. أما المذهب فمشترك بين المغنى وبين سائر أفراد التخت، ولا سيما (المذهبجية) أو (السنِّيده) وهم كصبيان المغنى، إلا أنهم علماء بالموشحات والأدوار ولا شأن لهم بالآلات، قد يكونون اثنين أو ثلاثة، يجمعون أصواتهم إلى صوت المغنى فى غناء المذهب، ويسندونه فى بعض

أجزاء الدور الذى يغنيه المغنى وحده، فيكررونها بعده، زيادة فى الطرب، واراحة له، ليعود إلى القطع الأخرى فيزداد بذلك طربا واطرابا

وجرت العادة أن يختم المغنى الوصلة الثالثة الأخيرة بقصيدة غزلية من مختار الشعر العربي البديع، كما جرت العادة أن لا يُسمِعَ المغنى عند (السميعة) ورواد الطرب الا فى الوصله الثالثة، لا فى الأولى، لأنه يكون قد (انجلى) ولانت حنجرته، وصفت نفسه وغلب عليه طربه .

وأشهر الملحنين والمغنين من الأساتذة الكبار، وأعلام الموسيقى الشرقية القديمة، نورد أسماءهم، كما ترد على الذاكرة، لا بقصد تصنيفهم، وترتيب طبقاتهم واقدميتهم : عبده الحمولى، ومحمد عثمان والمظ، والشيخ يوسف المنيلاوى، ومحمد سالم المشهور بالعجوز ، والشيخ أبو العلا، وعبد الحى حلمى، ومحمد السبع ، وسليمان أبو داود وعبد البارى، وابراهيم شفيق، وابراهيم القبانى وداود حسنى، والشيخ سيد الصفطى، واحمد فريد، وسيد درويش، وزكى مراد، وصالح عبد الحى، وعبد اللطيف البنا، وعبد الله الخولى، ومحمد أنور، ومحمد نديم ، وسيد شطا، والشيخ عبد الله الأوضى، والشيخ محمد سليم ، واحمد صابر . ومنهم من توفى ، ومنهم من انقطع عن الغناء مثل الأستاذ الفنان ابراهيم شفيق الذى استقل بإدارة معهد الاتحاد الموسيقى بعابدين، كما ولى إدارة معهد فؤاد الأول للموسيقى

وأشهر العازفين على العود من مضى منهم ومن بقى : الجركشى والليثى ومحمد القصبجى، ومحمد الشربينى، واحمد سبيع، وعبدالعزيز الطويل، والسيد الصغير، وغيرهم كثير ممن فاتتنا أسماؤهم .

وعلى الكمان : صهلون، وسامى شوا، والياس الكبير، والياس الصغير، وتوفيق الصباغ، وزكى عزت .

وعلى القانون : محمد العقاد، ومحمد ابراهيم الكبير، وابراهيم العريان، وعبد الحميد القضابى، ومحمد حسن السويسى، ومحمدعمر .

والمغردون بالناى أشهرهم أمين بك بوزرى، وعلى صالح، وعبده صالح، وأبو عوف .

١ - البشارف والسماعيات

وقلما يسمع جيل اليوم المساكين هذه البشارف والسماعيات التى تهز أوتار القلوب طربا وإحكاما. لقد زويت عن الجمهور وحرم من سماعها، الا ما يعزف منها فى معاهد الموسيقى ؛ حتى أن القائمين بادارة الاذاعة المصرية، كانوا يسمعوننا حظا يسيرا من هـــذه البشارف، آونة وأخرى، كبشرف عثمان بك العشاق، وبشرف رصد عاصم بك أو رصد طاتيوس، فامسوا اليوم به أشحة، وقطعوا عنا هذه المتع النادرة المعدودة ! ..

والبشرف تسميته تركية (بشرو). وعن أعلام موسيقى الاتراك أخذنا هذه البشارف البديعة، التى كانت تعد فاتحة الغناء الشرقى

القديم على التخوت . وكان يراد بها، فوق حلاوة الاطراب الذى فيها (تحضير) الآلاتية لعزف (تقاسيمهم) على آلاتهم، بايلاج النغمة المراد الغناء بها فى قلوبهم، واقرارها فى آذانهم، وكذلك المُغَنى .

والبشرف قطعة موسيقيه فنيه بارعة، تعزف فى ما يقرب من ربع ساعة، باشتراك جميع آلات التخت، وتتألف عادة من أربعة أجزاء، يسمى كل جزء منها خانه أو بدنية، تختم كل بدنيه بلازمه أو (تسليم) يتكرر أربع مرات . والسماعيات مثلها، إلا أنها تتميز عن البشارف بضرب على الدف، كضرب السماعى ثقيل مثلا . فهى ذات وزن دقيق كوزن الموشحات ووزن الشعر العربى على بحوره المعروفة .

والمشهور من هذه البشارف لعثمان بك : عشاق ، وصبا ، وحجاز ، وحجاز كار ، ونهوند ؛ ولغيره ، رصد عاصم بك، ورصد طاتيوس . وسيزدولاره للسلطان سليم ، وحجاز سالم بك ، وبشرف كوزوم، والشنبر . وعربات السيكا ، وسماعى ثقيل بياتى ، وسماعى نهاوند يوسف باشا، وغيرها كثير .

فأين ذهب هذا الفن المحكم البديع ؟ وكيف طوى عنا هذا الطرب ؟ وما بالنا وقد حرمنا من طرب التخوت وعز القديم، تسكت الاذاعة المصرية عن هذا ، وتحرم الموسيقى العربية من هذه النغمه الفنية ، والجمهور من هذا الطرب الرفيع الذى يربى فيه الذوق، ويغذى منه النفس والقلب ؟

ب ـ الموشحات

والموشحات لها كذلك، مع التطريب البليغ، عمل (التحضير) اعنى تهيئة النغمة التى سيغنى منها المغنى فى أذنيه، واقرارها فى قلبه :

والموشحات شعر رقيق ونظم لطيف وفن رقيق، احدثه أهل الاندلس فى القرن الثالث الهجرى. ينظمونها اسماطا اسماطا، واغصانا اغصانا . يلتزمون قافية واحدة . ووزنا واحدا لهذه الاغصان على التتابع. فمثلا هذا الموشح وهو من نغمة السيكا، مؤلف من اربعة ابيات . ودونك البيت الاول منه :

يانحيف القوام التجافى حرام املا كاس المدام

واسقينى بايدك من ايدك لايدى

فقد رأيت كيف انه قد قسم الى اغصان ، والتزم فى كل غصن قافيه واحدة ووزن واحد .

وأول من وضع هذه الموشحات مقدّم بن معافر. ثم برع فيه عبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح فى القرن الرابع، وهذبه القاضى هبة الله بن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ. وسبب تسمية هذا الفن بالموشح هو لان خرجاته واغصانه كالوشاح له. والوشاح بضم الواو وكسرها، فى اللغة كِرسان اى فرعان من لؤلؤ وجوهر منظومان بخلاف، اعنى يخالف بينهما لونا ونظا، أو هو اديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

وللموشحات ضروبات اى أوزان تسمى بالاصول لاتستقيم الا به، كما يستقيم الشعر باوزانه وبحوره، لضبطها وضبط المنشديها عند انشادهم مجتمعين حتى لايسبق احدهم الآخر، ولا يتأخر عنه بل يكونون جميعهم كواحد.

ويعبر عن هذه الاوزان بلفظى (تم) و (تك). وهما بمنزلة اجزاء العروض فى الشعر، فهو مركب من سبب خفيف يتألف من متحرك وساكن كقولك: لم اترك. فلم، وأت، ورك من اترك، اسباب خفيفه، ومن سبب ثقيل يتألف من حرفين متحركين كقولك لِمَ وغَدُ. وثم تقسيان آخران هما الوتد، والفاصله، ليس هنا موضع التفصيل فيهما.

ويوافق السبب الخفيف فى الشعر، لفظة (تم) فى وزن الموشحات والسبب الثقيل لفظة (تك)، الا انه شاع فى مصر النطق بالتم والتك كسببين خفيفين. أما ايقاعهما على الدف، (فالتم) يضرب على رَقّ الدف اعنى جلدته، والتك على صَنج الدف، أى الحلق النحاسيه المدلاة باطار الدف. واذا لم يجدوا دفا ضربوا التم باليد مبسوطه، والتك باليد مقبوضة، على الفخذ أو على اى شيء كان

والمشهور من هذه الضروبات سبعة عشر وزنا هى: سماعى خفيف، وسماعى ثقيل، والشنبر، والورشان والفاخت، والرهج والاربعة وعشرون، والمخمس، والمحجر، والستة عشر، والمدور

والمصمودى، والاوفر، والمربع، والنوخت والظرفات والاقصاق .
ولنضرب لك مثلا ببعض ضروبات التم والتك لهذه الموشحات لتتبين جلال هذا الفن الموسيقى القديم ومتانة الصنعة فيه :

المصمــــودى

تم تم تك تم تك تك

والسماعى ثقيــــل

تم تك تم تم تك

والورشـــان

تك تم تك تم تك تك تك تك تك تم تم تم تم تك تك تك تم

ونحيل القارىء المتقصى الى كتب العلم والفن الموسيقى الشرقى، اذا أراد معرفة بقية الضروبات . فما اردناهنا الا ضرب الامثال لمن يعى

٭

٭ ٭

ى - الادوار

أما الدور فهذا قطب الليلة الساهرة، وأُس بناء الطرب، وعمدة الغناء . ويغلب أن يلحن لمعنى ومقصد ومناسبه، مثل دور « مليكى أنا عبدك » نغمة رست الذى لحنه طيب الذكر محمد عثمان وغناه عبده الحمولى اقرارا بفضل المليك عليه، ومثل دور « النيل أهو فاض » نغمه حجاز . ولا ندرى ما الذى جعل هذا الدور من المهملات، حتى فى القديم، غير مشهور، مع ان معناه شريف ووضعه جدير بالاقبال وترديد الانشاد ، واليك مستهله :

النيل أهو فاض على البلاد   بلغت فيه كل المطلوب
لما لحته ارتاح قلبي   وشربت فى محبته حبي

ومثله دور « يا مصر انسك عال » نغمة عشاق ، وهو نظير هذا الدور الذى ذكرناه ، ليس له جولة فى الغناء القديم ولا ذكر ، غناه عبده الحمولى فى مهرجان قناة السويس ، تلحين الشيخ المسلوب .

هذا مع استفاضة الأدوار بالمعانى اللطيفة ، والألفاظ الرشيقة والغزل الرقيق ، ولطف المداخل ، وبراعة المخارج . ولو انك ألبستها ثوب الفصيح ، وجردتها من العامية ، لخرجت لك من طراز عجيب فى أدب النفس وأدب اللغة .

والدور فن رصين ، وبنيان فى الموسيقى الشرقية متين يروع الناظرين ، وصنعة عجيبة ، وطرب حاشد مسكر ، لا يغنيه إلا فحل فى المغنين ، فارس فى ضروب الغناء ، قد يستغرق انشاده ساعة وافرة من ليالى الطروب . يجول فيه المغنى كل مجال ، ويصول ماشاء له الصيال . ويطربك بالوان من الفن والطرب تنقلك من حال إلى حال . وإنا نضرب لك مثلا من عديد ، إذ كيف نحصى لك مالا يحصى وما تشابه فى الحسن والجمال ؟

نضرب لك مثلا بدور « ياقلب حبك من سنين » تلحين الملحن الكبير الموسيقار المبدع المأسوف عليه داود حسنى ، فانه قطعة ركبت على ثلاثة أركان ، وثلاث فقر ، الفن فى كل منها ناطق بقدرة داود وسلطانه على تصريف الانغام ، وأخذها بالنواصى ثم تجتمع الاجزاء الثلاثاء على نسق عجيب ، وحبك بديع وطرب يملأ

صدرك. فيالها استاذية !ويا عجبا لفن الادوار يلق سحره على سامعيه على أيدى السحرة من عباقرة الموسيقى الشرقية القديمة البديعة كداود والملحن الكبير الاستاذ ابراهيم القبانى، وسيد درويش والشيخ زكريا، ومن قبلهم أئمة الطرب القديم عبده الحمولى ومحمد عثمان، ومن اليهم!

ومن أشهر الأدوار من السيكا : متع حياتك بالأحباب، وفى البعد يا ما كنت أنوح، ويا قلب مين قالك تعشق، والفؤاد حبك، ومن الجركا : فى العشق أنا قلبي هنى، والعشق كله نواح، وتيهك على اليوم بسنين، وعلى روحى أنا الجانى، وبدع الحبيب كله يطرب، وأسير العشق يا ما يشوف، ومن عراق : فؤادى اسألك قول لى. ولسان الدمع أفصح من بيانى، ومن النهوند : كادنى الهوى وافتكارك إيه يفيدك، ويا قمر دارى العيون، ومن الحجاز : الصلح بينى وبين حبيبي، ويا ورد خد الحبيب، وهوى حبيبي يوافقنى، ويا الله اصلح الحال، وأنت أصل البدر عندى، وجعلت هجرى عوايدك. وأنت فريد فى الحسن، وفريد المحاسن بان، وفى مجلس الأنس الهنى، ودليل الحب فى قلبي تحكم، وأهون عليك تهجرنى، ومن الصبا : ما كنت قلت ماتعشقشى، وما أحب غيرك وأعشق الخالص، وحبك ياسلام ويعيش ويعشق قلبي، وقدما أحبك، ومن البياتى : الزهر والاغصان وعاهدت قلبي، والمحاسن واللطافة، وزاهى جمالك فتنى، وفضل زمانى يواعد، وكان مالى فى حبك، وعهد الاخوة نحفظه ويا فؤادى ليه بتعشق، والقلب فى ودك مشتاق وجدى يانفس حظك، وحظ الحياة

والحلو لما انعطف وقبل ما تلوف بالمحبة،وسلمت روحك وطول يا ليلى،ويا وصل شرف وياللى معك روح الامل، وقل لى، رأيت إيه، رقدك أمير الاغصان ، ومن قبل ما أهوى الجمال، وكل من يعشق جميل ؛ ومن الججازكار : القلب فى حكم الهوى، ودع العذول والله يصون دولة حسنك،ومليك الحسن فى دولة جماله، ويا ما انت واحشنى؛ ومن الرصد : مليكى أنا عبدك،وأصل الغرام نظرة ،فؤادى أمره عجيب وعشنا وشفنا سنين واحب الحسن خالص وأنا الغرام وأنت الجمال،وبعد الخصام حبي اصطلح، ويا طالع السعد افرح لى والبلبل جانى وقال لى .

م ـ المواليا (الموال)

أما الموال فهو ما يوطىء به المغنى للدور الذى سيغنيه، وفيه يجول المغنى ويصول غير مقيد فيه بضرب أو وزن الا ما يوحى اليه فنه وإطرابه .

والموال مقطعة من الشعر العامى، كان وضعه فى العصر العباسى الاول ، عصر شباب الدولة الاسلامية ، وتألق شمس مجدها ، فى ما بين القرنين الثانى والرابع للهجرة.وقيل أن أول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم . وذلك أن هرون الرشيد لما فتك بالبرامكة ، أمر ألا يُرثوا بشعر فرثتهم مع ذلك،مستخفية فى قبورهم مولاة لهم، بمقطعات مقفيات الشطور ، أربعة أربعة . كل شطر يختم بروى واحد على قافية واحدة، من بحر البسيط ووزنه فى الشعر مستفعلن

فاعلن، مستفعلن فاعلن، الا أنها بعبارة عامية ملحونة . ومن هذه المقطعات قولها فيهم :

يادار أين ملوك الارض أين الفرس * أين الذين حموها بالقنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الاراضى الدرس * سكوت بعد الفصاحة السنتهم خرس

وكانت تصيح عقب كل مربعة (واموالياه) فاقتصر فى تسميته على لفظ المواليا ومنه شاع استعماله عند العامة بالموال جمعه مواويل. ودونك مثلا من هذه المواويل المطربة على خفتها ورشاقتها ؛ ودنوها من الباب العامة :

قم فى دجا الليل ترى بدر الجمال طالع
معجب بتيهه وسعده فى العلا طالع
يا مدعى الحب خدلك فى الهوى طالع
واحسب حساب العذول من ضمن أمثالك
وان زاد بك الشوق فى كتب الغرام طالع

٥ – الطقاطيق

أما الطقاطيق فهى اسم على مسمى ، مقطعات لطيفة رشيقة ، هى موجز من الأدوار ، أو هى أدوار مصغرة لمن يروم التخفف فى الغناء ، والايجاز فى الوقت ، والتيسير فى الصنعة والفن . الفاظها أدنى إلى العامية من الأدوار ، وتكثر فيها الفكاهة والهزل . تكون فى الليالى الساهرة كالحشو اللطيف ، والمناقلة المستحبة والتنويع المستملح

ومن أشهر الملحنين للطقاطيق المأسوف عليهما الشيخ سيد درويش وداود حسنى ، ومن فى آثارها من تركة الموسيقى العربية الشرقية

وأشهر هذه الطقاطيق: زورونى كل سنة مرة ، وصيد العصارى ياسمك يابنى ، وهاتى لى يا امه عصفورى ، ويا سلام على الفله ، ويا سيدى ياللى معاك الورد ، ويا منعنشه يا بتاعة اللوز ، والبحر بيضحك ليه وأنا نازله ادلع املا القلل ، وعليادى اليادى ، وحبك يامصرية ، وكان العطشجى فين لما الوابور وقع انكسر ، ويازهرة الليمون ، وحرمت يا ناس ما بحبش ، والوى الوى ، ولا ملامة عليك يا عيونى بحبك ، وشبيك لبيك .

د ـ القصائد

أما القصائد أو الشعر العربى الفصيح . فطابع الموسيقى العربية القديمة ، والطرب الشرقى المصفى ؛ عرفت به الموسيقى الشرقية فى كل عصورها : الجاهلية ، والاسلام ، فى دولتى بنى أميه ، وبنى العباس إلى يومنا هذا . ميزة سُمُوّها ، وعلامة أدبها ، ودليل لطافة ذوقها وقلما يسمعها جيل اليوم المسكين ، إلا بعض ماتنشده أم كلثوم من قصائد شوقى ، منذ عثت هذه الفوضى الموسيقية الفرنجية العربية فينا فسادا . هذه القصائد التى قلما يخلو منها سامر وعرس وتخت فى الطرب القديم ، نظم من الشعر سام ولفظ رشيق ، وغزل رقيق تسمو بنفس المستمع ، وتصقل ذوقه وتهذب لسانه ، وتلقنه الفصاحة وتحببه فى أدب لغته وتذكره بأصالة أصولة وشرف منابته ، وتملأه مع هذا طربا وحبورا

والقصائد عادة تختم بها الليالى ، ويجعلها المغنى فى الذروة من عنايته عندما يحف به الطارب ويملك قيادالاطراب وليونة الصوت فى حنجرته

وطواعيته . ولا يكون ذلك الا فى الوصله الثالثه ، كما ذكرنا لك ، فيبدع فيها ويطرب ، ويجول فى ميدانه كما شاءت له صناعته وفروسيته أن يجول

ومن اشهر هذه القصائد : اراك عصى الدمع ، ولم يطلق ليلى ولكن لم أنم ، وقائلة لما أردت وداعها ، وشكوت فقالت كل هذا تبرما بحبي ، وعجبت لسعى الدهر بينى وبينها ، وسمحت بارسال الدموع محاجرى وأفدى التى لو رآها الغصن مال لها ، وأسرت فؤادى المستهام عزيزة ويا من هواه أعزه وأذلنى ، وسلوا حمرة الخدين عن مهجة الصب وفتكات لحظك أم سيوف أبيك ، بحقك أنت المنى والطلب ، وغيرى على السلوان قادر ، وخطرت كبدر التم فى الحلل الخضر .

الخـــاتمة

نلخص الآن كتابتنا هذا فى نخيل ما يأتى ومصاصه :

أولا — فليعلم الذين لا يعلمون انه لا جديد لمن لا قديم له ، ولا عز لمن لا تاريخ له ، بل قل شر من الدواب من يجهل تاريخه . وانه من الكرامة القومية ، وصدق الوطنية ، وسلامة الاستقلال المحافظة على أصولنا ، واتصال حاضرنا بماضينا بسبب وثيق .

ثانيا — كل تقليد ضعف وخور ، وكل خلط فى آدابنا وفنوننا ، ولا سيما فى موسيقانا تبجية ومهانة ؛ هذا مع منافرة الذوق ، ومجافاة الفطرة

ثالثا — موسيقانا غنية بالفن والطرب ، وقد يمنا جمع فاوعى ابداعا وامتاعا ، فليست هى بحاجة إلى التطعيم بموسيقى غربية ، لا تأتلف

معها بأية حال ، فان الطبائع والأذواق فى الأمم مغروزة فى النفوس والابدان . ولكل أمة طبيعتها و ذوقها الخاص . فمحال التبديل فيهما والتحوير ، والنقل والتخليط .

رابعا - لاينبغي أن نضع جديدا ، أو نسمع جديدا فى موسيقانا وأغانينا الا اذا كان متصلا بقديمنا ، ووار دا وصادرا من شرعته ونبعه ، بينهما صلة شديدة ورحم واشجه . فان الجديد اذا كان من صبغة موسيقانا ، ألفته طباعنا وما فطر نا عليه ، ولم تنفر منه اذواقنا واسماعنا .

خامسا - يجب ردع هؤلاء المستضعفين ، والمقلدين المارقين ، من كل من يزعم انه صاحب جديد . إن هو الا خلط موسيقى فرنجية بموسيقى عربية شرقية . يجب الاخذ على ايديهم وان يُنصَبوا بمقام التأديب لهم والاذلال ، بان لانسمع اغانيهم ولا نقبل على الحانهم المستهجنه . فان من يفعل ذلك منا فقد آزرهم وارخى لهم فى غوايتهم ، واقرهم على باطلهم ، وشاركهم فى جنايتهم على الوطنيه والكرامة القوميه .

سادسا - على موسيقيينا الذين لصقوا بفطرتهم القويمه ، ووقوا اذواقهم من الانزلاق فى مهاوى هذا التدجيل الذى سموه بالجديد ، موسيقيينا الذين هم تريكة الغناء القديم والموسيقى الشرقية الاصيله ، أن ينهضوا نهضة الاسود فيضموا صفوفهم ، ويؤلبوا جموعهم لنصرة مذهبهم القويم ومظاهرة الغناء القديم . ان سكوتهم وقبوعهم قد اطمع فيهم هؤلاء الادعياء اصحاب نعرة الجديد ، فكانوا الفئة الغالبه بباطلهم ، واصحاب القديم المغلوبون بحقهم .

يامعشر الموسيقيين القدامى اذمروا انفسكم، وشدوا عزائمكم وعضوا على نواجذكم فى رد العدوان عليكم وعلى الموسيقى الشرقيه الكريمه . ان لم يكن عن عزة الحق الذى انتم عليه والكرامة، فلا اقل من أن تكون وثبتكم دفاعا عن النفس وفى سبيل العيش . كونوا يدا واحدة، وفئة موحدة المناهج والغايات فى نعش القديم واعزاز القديم، واذاعة القديم. ولا تدعوهم سادرين فى جرأتهم وباطلهم، وانتم سكوت تنظرون .

سابعا — على المعهد الموسيقى النهوض بالغناء القديم، والمؤازرة للموسيقى الشرقيه الصريحه، والعودة بها الى سالف عهدها الزاهر. وليحسر عن محاسنها ، وليكشف عن نفائس دفائنها بتعليم الموشحات والبشارف والادوار وكل مايتصل بالموسيقى المصريه الشرقيه القديمه، وتخليصها من كل جديد مزيف مموه، قوامه التخليط الشنيع والتقليد المزرى. فان المعهد الموسيقى مصرى شرقى قبل كل شيء، وانه من القديم نشأ ، ومن اصوله نبت ، وامتـــدت جذوعه وورفت غصونه .

ثامنا — ان على الاذاعه المصريه تبعة جسيمه. وإن حسابها لعسير . الافلتعلن انها مصرية شرقيه أولا وآخرا . ولا تجعلوا تمصير الاذاعه اسما بغير مسمى، وقولا ولا فعل .

نريد من الاذاعه المصريه — وكل بلاد الشرق وكافة ابناء العروبه، يترقبون هذا الذى نريد ويشتهونه، اذهم يعدون مصر

زعيمة وطليعه، وانهم ليعجبون كيف أن مصر قد انساقت فى هذا الجديد المشنوع المريب — نريد من الاذاعه المصريه أن لا تسمعنا الا القديم ، ولا تنصر الا القديم وان تأخذ بايدى موسيقي القديم ومغنيه، وتجمعهم من حولها وتبسط عليهم جناحيها وتتفقدهم بتعهدها

فلتسمعنا فى مشرق ومغرب كل يوم الموسيقى الشرقية القديمه ذات الطرب والابداع، مهذبة الاذواق، مغذية الوطنية، بما حوت من بشارف وموشحات وأدوار، وأن تصون آذاننا عن سماع هذه الالحان الهجينة الخليطه، ولاسيما الحان عبدالوهاب الكئيبة الدخيله، ولا بأس أن تسمعنا من قديمه، اذكان يصدح أول عهدانه بقصائد شوقى. بل إنا لنعده من فرسان الغناء، اذا استطاع أن يغنينا شيئا من موشحات القديم وادوار القديم !

ولا نقصد بهذا أن تغلق الابواب دون أى جديد، فنحن نرحب بكل جديد تنمى اصوله الى قديمنا، ويكون منه بصلة وثيقه، كالصنو من الصنو، فيه مع هذا قوة القديم وطربه .

هذا ما اردنا قوله. وحملنا لواءه لا نبغى اجرا ولا شكورا، دفاعا عن كرامة مصر، واعلاء لكلمة الوطنية، ونصرة للحق، وتخليصا لموسيقانا الشرقيه العريقه الاصيله من شوائب الفرنجة، ومفاضح الخلط ومعرة التقليد والتبعيه ، إن نريد الا الاصلاح ما استطعنا، وفقنا فى نهضتنا الاستقلاليه الى رشد وسداد .

(فرغ من تحريره فى ١٩ ابريل سنة ١٩٤٩)

مؤلفاتنا العربية فى الادب والاجتماع

(مؤلفات نفـــدت طبعتها)

مذكرات حى — وعش خاليا — يوم الاربعاء — يبكيئ الجنين فى أحشائى — مختار النوادر — ولى الدين يكن — فرح انطون — الثمانون فى المائة .

كيف تنجح فى الحياة

يتضمن ثمانمائة قاعدة فى السلوك ومبغاة النجاح لأعاظم رجال العالم ، ممن عجموا الحياة وضرسوها ، تهدى من عمل بها إلى السداد فى أعماله ، وضمان النجاح فى حياته. يطلب من المؤلف بمعهده، ومن المكاتب الكبرى. وثمنه ٧ قروش صاغ .

مؤلفاتنا الفرنسية

(١) الكافى — الجزء الأول يشتمل على جميع علـــم الفرنسية . (٢) الكافى — الجزء الثانى متمم للجزء الأول . (٣) مدارج الانشاء — جزآن لتعليم الانشاء . (٤) المستقرب — معلم الفرنسية من غير معلم . (٥) طريقة منسى — الجريدة الأسبوعية المبتكرة فى تعليم الفرنسية « تطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال بالفجالة » .

ما عدا طريقة منسى ،فتطلب من المؤلف بادارة المعهد.



DATE DUE


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت